تجلي الجنة في رواية "سفر البنيان" "لجمال الغيطاني" بين غياب المصطلح وظهور المفهوم

عائشة لكحل

– كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة باجي مختار –عنابة، aicha.lakehal@yahoo.fr

تاريخ الإيداع: 2016/01/14 **تاريخ المراجعة:** 2017/02/09 **تاريخ القبول:** 2017/02/19

ملخص

جنح "الغيطاني" في أعماله إلى الارتقاء إلى عالم الشمول والغيب من خلال ترانيم صوفية ووحدات دلالية، فقد أراد أن يجمع في روايته "سفر البنيان" بين عالمين؛ عالم الكتابة الفنية والعالم الرؤيوي الذي تشكل وفق عوالم حقيقية وعوالم خفية، تجلت من خلال موضوعة الجنة التي تراءت خلف مصطلح المدينة، وهذا ما دفعنا إلى الغوص في عمق النص الروائي بحثا عن تجليات الجنة. تهدف الدراسة إلى الكشف عن الموضوعات والرموز التي انفتحت على العالم الدلالي، فاستوقفتنا لمحاولة فهمها والتعامل معها، في محاولة للإجابة عن الإشكالية: كيف تجلى مفهوم الجنة في الرواية على الرغم من غياب المصطلح؟ ما الهاجس الذي دفع الكاتب إلى الجمع بين عالم الكتابة وعالم التصوف وعالم الجنة والعالم الحقيقي؟

الكلمات المفاتيح: مدينة، جنة، بعث، تصوف، عالم رؤيوي.

Manifestation of Paradise in the Novel "Sifr El Bounian" of "Djamel Elguitani" Between the Absence of the Term and the Emergence of the Concept

Abstract

EL Guitani is inclined, in his works to ascend to an exhaustiveness and invisibility world through mystical anthems and semantic units. In his novel "Sifr elbounian" he wanted to brinc together two worlds: Artistic writing world and vision world shaped according to real worlds and invisible ones displayed through the theme: The paradise presented behind city term, this has pushed us to choose the theme of paradise as our study subject. This study aims to discover the themes and symbols opened upon the meaningful world. This has attracted in order to understand them.

Keywords: City, paradise, revival, Sufism, visin world.

Manifestation du Paradis dans le roman de "Sifr El Bounian" de "Djamel El Guitani" Entre l'absence du terme et l'émergence du concept

Résumé

EL Guitani était incliné dans ses travaux à monter à un monde d'exhaustivité et d'invisibilité à travers des hymnes mystique et des unités sémantiques. Dans son roman «Sifr El Bounian il a voulu réunir deux mondes: le monde de l'écriture artistique et le monde de vision qui s'est modelé selon des mondes réels et invisibles manifestés à travers le thème du paradis se présentant derrière le terme de la cité, d'ailleurs c'est ce qui nous a poussé à choisir le thème du paradis comme sujet d'étude. Cette étude vise à découvrir les thèmes et les symboles ayant s'ouvrant sur le monde significatif.

Mots-clés: Cité, paradis, résurrection, soufisme, monde de vision.

المؤلف المرسل: عائشة لكحل، aicha.lakehal@yahoo.fr

مقدمـة

تمثل الجنة إجابة قبلية استشرافية لسؤال الإنسان عن نهاية العالم، أو النهايات الحتمية للوجود الإنساني، فأراد منذ بداية عهده بهذا العالم أن يرسم تصوره للعالم الآخر مستلهما بخياله سمات وأصولا لأسرار باطنية وعوالم غيبية لهذا الوجود، ولئن كان الخلود شغله الشاغل الذي أرّقه منذ زمن بعيد فقد أراد أن تكون النهاية هي الوصول إلى ذلك العالم المنشود الذي سيطر على تفكيره ووجه اهتمامه نحو التأمل والاستبطان الداخلي والحلم والسفر، فوضع بذلك حدودا وإحداثيات العالم المثالي والأبدي الذي تجسد في الجنة.

تجلت الجنة بهالتها الأسطورية والعقدية في العديد من الأعمال الإبداعية، من أهمها رواية "سفر البنيان" "لجمال الغيطاني"، فقد أراد هذا الأخير أن يجمع فيها بين عالمين ممتنعين؛ عالم الكتابة الفنية والعالم الرؤيوي الذي تشكل وفق عوالم حقيقية وعوالم خفية، وفي هذين العالمين تكمن خصوصية الكتابة الروائية لدى "الغيطاني"، الذي حاول أن يبث رؤاه من خلال أدوات إبداعية مختلفة الأبعاد والهويات، بحثا عن لغة تستوعب كل التجارب التي عرفها المبدع، فكانت الرواية أنموذجا مثاليا يصور طبيعة ذلك التفاعل الإنساني بين الذات والزمن في إطار صوفي يؤطر رؤية الكاتب لواقعه.

جنح "الغيطاني" إلى الارتقاء بروايته إلى عالم الشمول والغيب من خلال ترانيم صوفية ترددت وفق وحدات دلالية وجهت اهتمام النقاد إلى محاولة إدراك عالم البنيان–بوصفه المكون الأبرز– متغافلين عن بعض القضايا التي مثلت مركز ثقل الرواية، وهذا ما دفعنا إلى أن نعيد قراءة الرواية من جديد، مستأنسين بغنى الرواية بالموضوعات والرموز والرؤى، وانتهى بنا المطاف إلى انتقاء موضوعة المدينة/الجنة موضوعا للدراسة، فقد مثلت المدينة منذ بداية السرد هاجس جميع الشخصيات، وحلمهم المنتظر والجنةَ بمفهومها الغيبي، على الرغم من غياب المصطلح، وعلى هذا الأساس رأينا أن نخوض التجربة في هذا المجال في محاولة الإجابة عن جملة من الإشكاليات؛ كيف تجلى مفهوم الجنة في الرواية على الرغم من غياب المصطلح؟ ما الهدف من توظيف موضوعة الجنة في الرواية؟ ما الرموز والعناصر الدلالية التي وظفها الكاتب في الرواية؟ ما هو الهاجس الذي دفع الكاتب إلى الجمع بين عالم الكتابة وعالم التصوف وعالم الجنة والعالم الحقيقي؟

وقد انتهجنا التأويل للكشف عن الأبعاد الدلالية التي تحملها الموضوعات والرموز المتواترة في الرواية، ولذلك اخترنا المنهج السيميائي بوصفه أنسب المناهج التي نستكنه من خلالها الحدود التأويلية للنص، على نحو نحاور فيه مكنوناته بحثا عن الدلالة المصاحبة لكيفية تجلي هذه الرموز.

1- قراءة في الرواية

الرواية عبارة عن قصص ومغامرات وردت تحت تسمية خاصة إما "حكاية" أو"مصطلح"، اجتهد الكاتب في رسم معالمها، وتتبع حركة الشخصيات ووظائفها الدلالية، بدءا من محاولة وضع اللبنة الأولى للعمارة والبنيان، تمثل الرواية تجسيدا رؤيويا وفكريا لواقع حاول الكاتب أن يغوص في أعماقه ويسوق إلى القارئ تطلعات الإنسان إلى العالم المثالي، التي اتخذت اتجاهات عديدة، ولكنها تصب في حقل دلالي واحد هو البنيان، وهذا ما يعبر عنه العنوان، سفر البنيان، الرواية عبارة عن رحلة البحث عن أسرار العالم الغيبي، واستكناه مكنونات الوجود والغوص في عمق الحياة، وذلك بما تقدمه الشخصيات من وظائف سردية معتمدة على رحلاتها إلى العالم الغامض، تتمثل أهم هذه الشخصيات في شخصية الفراعنة التي تتجلى في الرواية من حين إلى آخر، وشخصية

البارون ومختلف البنائين، وعقبة بن نافع، والمهندس "أمنتحب" الذي يعتقد أن الإنسان نسختان، نسخة ظاهرة ونسخة باطنة، فالنسخة الظاهرة مضاهية للعالم بأسره، والنسخة الباطنة مضاهية للحضرة الإلهية [1].

إنّ ما يميز الرواية هو طغيان المعمار فيها، ذلك أن لكل شيء في هذا العالم بناءً، فهي رحلة عجيبة للبحث عن أصول البنيان والعمران وحدودها التاريخية، بدءا من الأهرامات التي تعد أولى معالم العمران، إضافة إلى البستان والفناء والموقد والقصر والهودج والمسجد والقبو والدرج والبربا، ولكن مفهوم العمران قد تراءى في الرواية في شكل محسوس، ارتبط بتجليات روحية ارتقت به من المستوى المادي إلى روحانية المكان المعشوق.

كما تضم الرواية فصلا اصطلح عليه بـ "نزل" الذي جاء في نهاية الرواية غير مسبوق باسم حكاية أو مصطلح كباقي العناصر، وهي تحمل في تفاصيل الحكاية مفهوم الجنة الذي تردّد في الرواية تحت مصطلح المدينة، فقد تطرق الكاتب إلى البحث عن الحقيقة الكامنة خلف البنيان، ليستولي بذلك على اهتمام القارئ انطلاقا من كون الجنة مكانا مقدسا استمد قداسته من موقعه في الرواية ومن جملة التحديدات المعمارية والإيديولوجية والقدسية لترتقي بها إلى مظان الغيب والشمول الكوني، وتمثل بذلك نهاية الرحلة التي بدأها الكاتب.

وقد ذيل الكاتب الرواية بخاتمة تشمل تفسيرا وتوضيحا لمصطلح العمارة، باعتبار العمارة بناءً والبناء يشمل كذلك الحروف والمعاني والإشارات؛ فالكتابة – من هذا المنظور– بناء والحروف مثل العمارة الحرف ظاهر والمعنى غائب، والدلالة حافظة.

اعتمد الغيطاني في مقاربته الدلالية بين الجنة (أو المدينة كاصطلاح) والواقع على الإطار الصوفي الذي استند إليه في خلق انسجام بنيوي ودلالي وموضوعي بين هذين العالمين؛ إذ يعد التصوف من الميادين الفكرية التي تناولت علاقة الإنسان بالخالق وبالوجود، انطلاقا من الاتساق بين المادي والروحي، والتنقل المستمر بين عوالم مختلفة، فالتصوف «تجربة خيالية روحية ونفسية، لا شأن للعقل والمنطق والجسد بها والخيال ركن أساس في بناء النصوص الصوفية مضمونا وشكلا وهو أهم مفاتيح الدخول إليها(...) لأنه وسيلة الأدب الصوفي في الانتقال من الآني الزائل إلى الأبدي الخالد إلى السعادة والمجد والقوة والكمال»[2].

جنح الكاتب إلى تقصي مراحل الرحلة الخيالية للبحث عن المعرفة والكشف عن الأسس المنطقية التي لا بد من أن يتبعها السالك لتحقيق السعادة، والوصول إلى مرحلة الإنسان الكامل التي تمثل أهم هدف للمتصوفة، فكانت المدينة معادلا موضوعيا للخلود؛ مثّل فيها الاغتراب والترحال والكشف والاتصال تجارب روحية ومراحل تمهيدية لعملية الوصول إلى مرحلة الكمال، والخلود في الجنة المفقودة التي يتحمل الإنسان مشقة الاغتراب والعيش في غياهب الحرمان الوجودي أملا في الحياة مرة أخرى، فـ«ثمة منطلق نفسي للجدل في الفكر الصوفي هو أزمة وجودية، أزمة الاغتراب في الكون الذي يحبونه طورا، لما فيه من جمال نابع عن جمال خالقه، ويرون فيه جنة خاصة لإيمانهم، ويكرهونه طورا، لما فيه من آلام وأحزان ونفي وغربة في سجن الوجود، وكأنهم مطرودون من جنتهم التي يحملون منها ذكرى الصمت والأمان والخلود، فهم في حنين دائم للرجوع إليها، ما دفعهم إلى ابتكار مفهوم خاص للرجوع، هو مفهوم معنوي لا مادي، عودة إلى ذواتهم بحثا عن الجنة المفقودة وعن الله فيها»[3]، وقد تجلت ملامح هذه الجنة في الرواية وفق ثنائية الحياة والموت.

تمثل رواية "سفر البنيان" عالما جديدا تَمثّله الكاتب، احتل فيه المكان أو البنيان دور البطولة الرئيس بوصفه فضاءً تتشابك فيه العوالم الحقيقية والخيالية (الصوفية والعجائبية وغيرها)، وتتفاعل فيه خطابات ناجمة عن فعل القراءة المتعمقة لكيفية حضور هذه العوالم في الرواية، استطاع "الغيطاني" أن ينتقل من خلالها من المستوى

السطحي إلى المستوى العميق الذي يمكن الكشف فيه عن الأبعاد الدلالية، وأن نحرر المعنى المرافق لتعالق البنى الفنية من سلطة الرمز، وكان للمدينة مكانة خاصة في الرواية، بوصفها رمزا أضفى حضورُه على النص حقلا دلاليا وتأويليا خاصا، وكان تطلعا إلى عالم غيبي.

2- غياب مصطلح (الجنة)

يأتي توظيف المدينة في الرواية كمصطلح يحيل إلى مفهوم واسع ومنفتح يفوق ذلك المصطلح الضيق الذي لا يفي حق المفهوم الحقيقي للمدينة، والمدينة في شكلها العام عبارة عن فضاءات خيالية تجمع بينها رؤية المؤلف، لارتباطه بعالم غامض غير محدد الهوية، وبالسر الباطني والحقيقة المطلقة التي لن يبلغها أي إنسان إلاّ بعد مراحل معينة، فهي(المدينة) تحتوي «على بنايات وفنون وعلوم جرى إخفاؤها بحكمة حكيمة في تلك الحروف لن يدركها إلا من يبلغ المدينة أو يعبرها»[4]. وهي الحلم الأبدي الذي حمل الكثير من أجله عبء انتظار لحظة دخول المدينة، فالمدينة هي الهدف الأسمى للوافدين. و«المدينة ليست احتمالا أو فرضية، إنها ماثلة قائمة عند الضفة الأخرى حتى وإن لم يلمح مخلوق قبسا منها(...) يرون المتجه إلى عبور القنطرة بعد صدور الإذن، بعضهم يجد من الوقت ليلتفت ويلوح مودعا»[5].

والمدينة في الرواية مدينتان «هنا سعى وأقام المرة الأولى في المدينة الرأسية، والثانية في مدينة الصخر والماء»[6]. وقد ورد في القرآن ذكر أنّ الجنة يوم القيامة جنتان: «ولمن خاف مقام ربّه جنتان»[7]. وهما كما جاء في كتاب وصف الفردوس «أما الأولى منها فمدينة من فضة شرفها من ذهب حوله جنتان فيأخذ ملك من ملائكة الله بيده، فينطلق بها إليها، ويبلّغ أهلها أن ولي الله قد أقبل (...) ثم يأخذ بيده، فينطلق به إلى مدينة من ذهب شرفها من فضة، ويبلّغ أهلها أن ولي الله قد أقبل»[8]. يأتي ذكر المدينة في الرواية على نحو يتشاكل فيه المعنى مع مفهوم الجنة، على الرغم من غياب المصطلح، وهذا ما يؤكده ما جاء في القرآن الكريم، وفي كتب في وصف الفردوس ووصف الجنة، وكذلك في الفكر الصوفي، إذ يقول ابن عربي في ذلك: «اعلم أيدنا الله وإياك أن الجنة جنتان جنة محسوسة وجنة معنوية والعقل يعقلهما معا، كما أن العالم عالمان عالم لطيف وعالم كثيف وعالم غيب وعالم شهادة»[9].

يحاول الكاتب أن يقرّب للقارئ صورة المدينة بمفهومها الغيبي معتمدا على جملة من التحديدات المادية والغيبية، ومن ذلك أنها تشبه إلى حد كبير الجنة خاصة وأنها ذات طابع غيبي لا يعلمه إلا خالقها، فـ«لا أحد يعرف بالضبط شكل المدينة، وكافة ما يقال إنها مجرد تخمين وتخييل، ما من أمر مؤكد »[10]. يعد غياب ملامح المدينة عن الوافدين أمرا يجعل منها عالما غيبيا لغموض أسراره وتماهيه في التخفي خلف سمات لا تزال تنام في لاشعور كل واحد منهم، يسلّم الجميع بوجود هذا المكان الفسيح دون أن يكون لذلك دليل منطقي ملموس، مما يؤكد حضور مفهوم العالم الآخر في هذا الفصل من الرواية فنيا ورؤيويا، انطلاقا من الجانب العقدي الذي يجعلنا نعتقد بوجود مثل هذا العالم، دون اللجوء إلى المطالبة أو البحث عما يؤكد هذا الوجود ماديا أو عقليا، وهذه الفكرة موجودة في جميع الديانات اليهودية والمسيحية، وعلى رأسها الإسلام الذي يمثل فيه الإيمان باليوم الآخر ركيزة أساسة من ركائز الإيمان، و كذلك التصوف، كما تقدم الرواية نماذج لرؤية الحضارة الفرعونية إلى العالم الآخر، فقد اهتمّ الفراعنة بشكل دائم بالقضايا الغيبية نتيجة إيمانهم القوي بوجود العالم الآخر أو فكرة البعث.

3- ظهور مفهوم (الجنة)، الموضوعات

تتجلى المدينة في الرواية بوصفها مكانا يصبو إليه كل إنسان، فقد أخذت طابعا قداسيا وذلك لأسباب عدة أهمها؛ استنادها إلى الفكر الصوفي الذي يؤطر هذا المكان، إضافة إلى هيمنة موضوعة المدينة على النص بتكرارها الطاغي على مساحة السرد، ثم تلك الهالة القداسية التي تجعل من المدينة مفهوما يتجاوز الحدود المتداولة إلى مظان العالم الغيبي، وذلك وفق موضوعات جزئية تمثل الأسس التي دفعتنا إلى الاعتقاد بدلالية المدينة.

أ- الموضوعات المادية

1- الأسوار: يحاول الراوي في الرواية أن ينقل تلك الهالة التي تحيط بالمدينة، من الأسوار المشيدة والجدران العالية التي تمنع المتسللين من الولوج إلى المدينة، فالمدينة حكر على من ينادى على أسمائهم من وقت إلى آخر، «... وتعدد مراكز التفتيش المتوالية قبل بلوغ أطراف المدينة المحمية»[11]. إن حماية المدينة من طرف الحراس وتحديد الشروط الصعبة على المريدين لها ليدخلانها عالم القداسة، فكل مرغوب يجعل الحصول عليه أمرا صعب المنال، تمثل الأسوار رمز القداسة الذي يمنح المدينة بعدا دلاليا يحيل إلى مفهوم الجنة، «حول الجنة سبعة أسوار وثماني قناطر محيطة بالجنة كلها: أول سور منها فضة، والثاني ذهب، والثالث ذهب وفضة، والرابع: لؤلؤ، والخامس: ياقوت، والسادس: زبرجد، والسابع: نور يتلألأ ما بين كل سورين خمسمائة عام»[12].

2- الأبواب: إن سخاء الرواية بالرموز والخصائص الفنية ليجعلنا نحدد مسار التأويل متخذين في ذلك من هذه الموضوعات بدائل نصية لمفهوم يتأرجح بين غموض الرموز واختفاء المضامين، وبروز الدلالات الناجمة عن تعالقات هذه المكونات، ومن هذه الموضوعات "الباب"، فقد جعل الكاتب للمدينة أبوابا يصفها تارة بالوهمية التي لا تؤدي إلى شيء: «به ما لا يحصى من المباني والبوابات الوهمية أي وهمية...ماذا يعني ذلك؟ بوابات لا تؤدي إلى شيء محدد، لكنها... »[13].

وتارة يوجه انتباه القارئ إلى الباب في الجهة الشرقية «فالنازلون فيها لا يأتون من الغرب أو الجنوب وإنما من الشرق»[14]. ولهذا الباب دلالة؛ فتعدد الأبواب من جهة، ثم التأكيد على الجهة الشرقية لهذا الباب لهما ارتباط بجغرافية المكان، ذلك أن أكثر أهل الجنة من أمة سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم- والأمة العربية موطنها الشرق، ولذلك كان الجمع بين الجهة والمدينة/الجنة بمثابة صورة فنية لها بعدها الرمزي والدلالي.

إذا كانت البوابات تمثل المداخل والممرات الوحيدة المؤدية إلى المدينة/الجنة في الرواية فقد كان لهذه الأبواب شبيه لها في الجنة في الحياة الأخرى، ذلك أن «للجنة ثمانية أبواب: باب المصلين، وباب الصائمين، وباب الصادقين، وباب المتصدقين، وباب القانتين، وباب الذاكرين، وباب الصابرين، وباب الخاشعين، وباب المتوكلين»[15]، من شأنها أن تجعل باب التأويل واردا، خاصة فيما يجمع بين عالمين؛ عالم الرواية (المدينة)، وعالم الحقيقة (الجنة)، والجمع بينهما يعني أن هناك تجانسا وتجاورا دلاليا بين موضوعتين متمايزتين (المدينة/الجنة).

3- القنطرة: وهي من الرموز التي استوقفتنا مليا في الرواية، وكانت ممثلا دلاليا لكونها- بتعبير الراوي- الممر الوحيد المؤدي إلى المدينة بعد سماع النداء، والقنطرة ماثلة، «يمضي المرور فوقها في اتجاه واحد فقط، إذ لم يلمح أي إنسان مجيء أحد الذين ذهبوا، أو واحدا من الأهالي المقيمين هناك»[16]. ومن أهم الخصائص التي تتصف بها: ذلك الغموض الذي يخيم عليها من حيث ارتباطُها الوثيق بالعالم الغيبي، إذ لم يعرف ساكنو النزل

حالة رجوع واحدة للذين عبروا الممر، جميعهم عبروا ولم يعودوا، كما يمثل الجسر(القنطرة) مكانا مقدسا تمارس فيه عمليات التطهير من قبل مجموعة من العاملين الذين يقومون بالفحص الشامل، ويمر كل واحد بأربع عشرة مرحلة.

يتماثل هذا الوصف للجسر أو القنطرة (خاصة من حيث الوظيفة) مع الجسر يوم الآخرة فـ «إذا كان يوم القيامة ووضع الجسر جاء النبيون (...) فيجيئون حتى يأخذوا الجسر، فينجو رسول الله، والصالحون، ويسقط من يسقط »[17]. يقود الجسر النبيين والصالحين إلى الجنة، ولا يمكن لأي كان أن يمر دون أن يخضع إلى الفحص الطبي من قبل الحراس، من شأنه أن يجعل من الجسر رمزا آخر بوصفه لازمة من لوازم الجنة، وعنصرا لا يمكن إغفاله يوم الحشر، ويسير بذلك بالمدينة من مجرد كونها مدينة عادية تفرضها الحاجة السردية إلى المكان لوقوع الأحداث، إلى مدينة غيبية قوامها التطلع إلى العالم الآخر"الجنة".

4- النهر: تحيل كل الرموز في المدينة إلى الوجود الإنساني، وكذلك النهر، ذلك العنصر الخفي، المفهوم الغامض الذي يتوارى خلف تعالقات فنية، وعناصر دلالية؛ فهو عبارة عن فاصل حاد بين عالمين الأصل فيهما الظهور والغياب، «إنها هناك على الطرف الآخر فيما يلي القنطرة مباشرة، النهر العميق الذي يُسمع تدفقُ موجه ولا يراه أحد، فاصل جلي، فارق حاد بين ضفتين وحالتين بل...عالمين متمايزين متباعدين بقدر تقاربهما »[18]. تحاكي ثنائية الظهور والغياب دلالة الحياة والموت، أو الموت وما بعد الموت التي تحيل(الثنائية) إلى دلالة الحياة الدنيا التي يكون فيها الوجود مؤقتا إلى يوم معلوم، والحياة الآخرة التي يخلد فيها الإنسان إما في الجنة، أوفي نار جهنم، وهما العالمان المتمايزان المتباعدان اللذان تشير إليهما الرواية.

كما يمثل النهر رمزا من رموز الجنة بمفهومها الحقيقي الواقعي والغيبي، ومن ذلك الكوثر، في قوله تعالى: «إنا أعطيناك الكوثر»[19]. «من صفاته أن من شرب منه لم يظمأ أبد »[20]. والكوثر في الجنة نهر أعظم؛ منحه الله للرسول، لما يحمله هذا النهر من قداسة تليق بمكانة أعظم خلق الله، "محمد" –صلى الله عليه وسلم– فقد «ساق حديث أنس عن أحمد في مسنده عن الرسول صلى الله عليه وسلم قال"أعطيت الكوثر، فإذا نهر يجري على ظهر الأرض، حافتاه قباب اللؤلؤ، ليس مسقوفا، فضربت يدي إلى تربته، فإذا تربته مسك أذفر، وحصباؤه اللؤلؤ"»[21]. يعد النهر – من هذا المنظور– موضوعا ذا إشعاع دلالي ومكانة سردية، بوصفه ممثلا عضويا لحضور مفهوم الجنة.

5- الأشجار: تظهر الرواية طبيعة تلك العلاقة التي تجمع بين الإنسان والأشجار، وهي علاقة حميمة ترنو إلى التعالق أو التماهي الكلي بينهما، إلى حد لا يمكن فيه التمييز بين الإنسان والشجرة، لمتانة الصلة بينهما، فالشجرة في الرواية مرضعة تحنوعلى رضيعها «إذ يحدث أن يجف اللبن في ضروع الأمهات، في البداية كن يستسلمن (..) إلى أن عرفت إحداهن طريقها إلى الشجرة أنثوية المظهر، أمومية التكوين، لينة البزابيز التي تنتهي بها أغصانها الدانية، يكفي أن يقترب فم الرضيع منها لتدر لبنا أبيض لا مثيل له»[22]، هذا إضافة إلى علاقات الإخصاب التي تجري بين البشر والأشجار في أوقات معينة من السنة، تظهر الشجرة في الرواية بوصفها رمزا للخصب والتجديد والنماء والحياة التي تتجدد بعد الموت والفقد والغياب لتدبّ الحياة من جديد في المدينة.

ولعل أهمية الأشجار في الرواية قد اقتبست من أهمية مثيلاتها في الجنة في العالم الآخر، تفسرها تلك الخصائص التي تتسم بها أشجار الجنة، فـ «أشجار الجنة كثيرة طيبة متنوعة، وقد أخبرنا الحق أن في الجنة أشجار العنب والنخل والرمان، كما فيها أشجار السدر والطلح »[23]، «وأشجار الجنة دائمة العطاء، فهي ليست

كأشجار الدنيا تعطي في وقت دون وقت، وفي فصل دون فصل، بل هي دائمة الظلال والثمار »[24]. يقودنا كل ما ذهبنا إليه إلى القول بالتماثل الكلي والتماهي بين أشجار المدينة وأشجار الجنة، في ذلك العطاء الوفير غير المنتهي الذي تمنحه الأشجار لأهل المدينة والجنة، من الثمار والغذاء والظلال وغيرها، حتى ليحسب القارئ أوصاف المدينة كما يقدمها الراوي فنيا أنه يقرأ أحد الكتب المؤلفة في وصف الجنة أو الفردوس، من خلال ذلك التمازج والتماهي والتداخل بين أشجار المدينة ومثيلاتها في الجنة.

6- الملائكة: تمثل الملائكة عنصرا هاما لا يمكن فصله عن الحقل الدلالي للجنة، ذلك أن حراس الجنة هم القائمون على شؤون أهلها لقوله «... فإذا جاوزوا الجسر [أي الرسول والصالحون] تلقتهم الملائكة تنزلهم منازلهم »[25]. ولكن الملائكة في الرواية (في المدينة) هم عبارة عن مجموع الحراس الذين يحرسون المدينة، هذا إضافة إلى مجموعة النساء والرجال القائمين على عمليات الفحص الطبي، لغياب ملامحهم، إذ تغطيهم الملابس الخاصة الواقية، وتخفي ملامحهم الأقنعة الصارمة [26]، وهذا ما يدفعنا إلى القول برمزية هؤلاء الأشخاص، فهم على تعدد سماتهم وصرامتهم وعدم وضوح ملامحهم وتخفيهم خلف الأقنعة خدم المدينة وحراسها والساهرون على خدمة أهلها، وما دامت المدينة – حسب تأويلنا – هي الجنة، فلا مناص من الذهاب إلى تأويل حراس المدينة بحراس الجنة، أي الملائكة.

7- مباهج المدينة/الجنة: يعود إقبال الكثير من الوافدين إلى المدينة إلى تلك المباهج المنتظرة التي مثلت حلم كل إنسان في هذا الوجود، للتمتع بكل ما حالت حياتهم في الإقامة المؤقتة/الدنيا دون تحققها، وفي المدينة «الأمهات يحدثن أطفالهن عن المباهج المنتظرة والملاعب الممتدة، والهواء الشفاف، والخير الوفير، الرجال يخططون لنيل المباهج وإدراك المتع التي حالت قيود النزل وظروف نشأتهم دون إدراكها، كذلك النساء التائقات الراغبات»[27].

لا يحتاج الإنسان في المدينة إلى الأدوات التي كان يستعملها في النزل/الإقامة المؤقتة، فهو في غنى عنها، و«عند الانتقال من موضع إلى آخر لا يحتاج أحد إلى غرارة أو مخلاة أو حقيبة إلى سائر تلك الأمور المعروفة في النزل، لا معنى لهذا كله في المدينة »[28]، كما توفر المدينة لأهلها سبل الراحة التي تغني من يعيش فيها عن النظر إلى ما لا يملكه، «للمدينة خصائصها، فاللحوم تنبت كالفاكهة والخضراوات، لا يذبح أي كائن ليقتات به آخر، لا يسفك دم أبدا، كل شيء ينبت، ثمار لها طعم الغزلان، وأشجار تطرح ما يشبه السمك، كما يشاء المرء يجد، وكما تهوى النفس تلقى، صنابير اللبن والشاي والقهوة والقرفة والنعناع والحلبة (..) والزهور المجففة تصب بلا انقطاع في قنوات صغيرة يفرشها حصى يكتنز ألوانه الخاصة فلا يراها إلا المتمعن، المجتهد، أما أنواع النبيذ فجميعها معتقة مطهرة، تفوق القدرة على الحصر، يختلف مذاقها من محلة إلى أخرى ومن ساعة إلى ساعة»[29].

يعد كل ما تقدمه المدينة إلى الوافدين إليها تطلعا إلى عالم غيبي، عالم ينتظر الناس أن يحين الوقت للكشف عن خفاياه، إذ يخبر الراوي عن استحالة الرجوع إلى النزل حالما ينتقل الواحد إلى القنطرة، ولكنه في الوقت نفسه يصور تفاصيل الحياة في الإقامة الأخرى الخالدة، دون الاستناد إلى مخبر واقعي، ليبقى الانتقال إلى المدينة مجرد حلم أو صورة مشوشة يتفنن كل واحد في رسم حدودها وتوزيع أوصافها وحركاتها وسكناتها، لتوهم القارئ بحقيقة الصورة على الرغم من ضبابية الرؤية التي تلف المدينة، ولكن المدهش هنا هو تقبل القارئ لكل ما يقال عن مباهج المدينة بوصفها حقيقة لا مجال للشك في أمرها.

إن تقديمنا لهذه الرؤية مرده رغبة حاصلة في توضيح نقطة هامة، هي إن كانت قد أحيطت المدينة بكل هذه السمات،خاصة الاعتقاد بما قيل عنها دون التشكيك في صحته، فهذا يعني أنها قد دخلت حيز القداسة، والقداسة تعني أمرين اثنين، إما ارتباطها بالأسطورة، وهذا بعيد عن مجال دراستنا، وإما ارتباطها بالجانب العقدي الديني الذي لا يفتح المجال لنقاش الكثير من المعطيات التي لا يجوز التشكيك فيها، وهذا الأخير هو ما يهمنا لاعتقادنا بدلالية المدينة باعتبارها رمزا للجنة.

ومن ذلك ما جاء في كتاب وصف الفردوس: «وحدثني ابن عبد الحكم أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال: "إن الرجل من أهل الجنة ليأخذ اللقمة فيجعلها في فيه ثم يخطر على باله طعام آخر فتتحول تلك اللقمة على التي تمنى" »[30]. ولا يغفل القارئ عما تقدمه المراجع سالفة الذكر عن الأصناف والألوان العديدة في الجنة، يكفينا منها أن نذكر مثالا آخر عن أنهار اللبن والعسل والخمر المعتقة، في قوله تعالى: «**أَنْهَار مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وأَنْهَارٍ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وأَنْهَارٍ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةً لِلشَّارِبِين وأَنْهَار مِنْ عَسَلٍ مُصَفَّى**»[31]. ليجعل من هذه الخاصية أو السمة رمزا لذلك التماثل بين المكانين، الروائي والحقيقي، أي المدينة والجنة، عن طريق تفكيك العناصر التي تربط بين عالمين متمايزين الموت والحياة اللذين يتجسدان في الإقامة المؤقتة، والخلود، ولا يحد من عزيمتنا ما قدمناه من عناصر مادية محسوسة لتقنص روابط تلك العلاقة، بل في الرواية ما يشير إلى رموز روحية يمكن إدراكها بوساطة العقل.

ب- الموضوعات الروحية:

1- الصلات الاجتماعية: من السمات المميزة التي تختص بها المدينة التقنية السردية التي اعتمدها الكاتب في تصوير تلك الحالة الشعورية أو النفسية الحادة التي تصيب النزلاء نتيجة غياب الصلات الاجتماعية بين الأفراد، فقد يسبق الابن والده أو العكس، وقد تعيش الأم مع أولادها دون أبيهم في النزل، أما في المدينة فيدخلها المنادون على أسمائهم فرادى إذ «يجيئون فرادى ويمضون كذلك»[32]، و«...ما يقدمونه إلى القادمين الذين يكون بعضهم ذاهلين عن أنفسهم، مروعين بما عاينوه من مشاق الطريق وكدورات الرحيل »[33]، «إن الوصول هنا رغم أنه عتبة فقط إلى المدينة يعد نعيما لمن كابد أهوال العبور من نقطة إلى أخرى ومن بيداء وحشة إلى أخرى أفدح»[34] وهي رمز للحالة التي يصورها القرآن في أهوال يوم القيامة في قوله: «**يَوْمَ يَفِرُّ المَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وأُمِّهِ وأَبِيهِ وصَاحِبَتِهِ وبَنِيهِ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ** »[35]. وفي هذا المقام القول الفصل في تلك الصورة التي يحاول الكاتب من خلالها أن يضع القارئ أمام المفهوم الحقيقي للمدينة وأن تتجاوز المعطيات المتداولة إلى المعنى العميق لهذا الرمز الصوفي.

2- موضوعة اللغة: تختلف لغة النزل عن لغة المدينة، وهي في المدينة لغة موحدة، يتعين على المقيمين فيها تعلمها والحديث بها «الأصل هنا لغة واحدة »[36]، «لغة المدينة المغايرة تماما لا يعرف منها أي إنسان حرفا واحدا »[37]، وكذلك لغة أهل الجنة، فهي مشتركة بين الجميع وهم على اختلاف انتمائهم يتكلمون اللغة العربية التي نزل بها القرآن الكريم.

3- الحياة والموت:

تتشكل الحياة البشرية إضافة إلى الوجود المادي المحسوس لعناصر الطبيعة وفق ثنائيات تتحكم في تمظهرها في هذا الكون، وهي عبارة عن وحدات متناقضة يقوم عليها وجود الإنسان مرهونا بكيفية تشاكلها وتناسقها وانسجامها في صورة تعطي للحياة مفهومها الحقيقي، وهي «ثنائيات عاناها الفكر الصوفي، وجسدها في نصوص

أدبية ولعل المنشأ الأصل لهذا الجدل هو طبيعة الوجود البشري، فهو مجموعة لا متناهية من الثنائيات المتناقضة (حياة وموت)، و(حزن وفرح)، و(بداية ونهاية)، و(روح وجسد)، والمعروف يدفع الصوفي إلى اختراق المجهول واكتشافه»[38]، وهذا ما دفع فعلا بالناس في الرواية إلى أن يعتزموا البحث عن الحقيقة القابعة خلف أسوار المدينة، على الرغم من الغموض الذي يخيم عليها، وتلك الهالة الأسطورية التي تلف المكان من كل جهة.

وللحياة والموت عند الصوفيين مفهوم يختلف عن المفهوم العادي؛ ذلك أن «الموت الصوفي ليس موت الجسد بل هو التخلص من أسر المادة، والانطلاق في عالم الروح بغية تحصيل المعرفة، فالحياة والموت عند الصوفيين فلسفة خاصة، يعبرون عنها بأشكال مختلفة»[39]، يتجسد هذا المفهوم الجديد من خلال ما تقدمه الرواية من مواقف ورؤى حول الحياة والوجود، وذلك من خلال الانتقال من الدار المؤقتة/ النزل إلى الإقامة الخالدة في المدينة المفقودة، أو كما يعبر عنها المتصوفة بالجنة المفقودة، ينتج عن ذلك محاولة التخلص من كل ما هو مادي يعيق عملية الوصول إلى العالم الآخر أو الجنة، ومنه كانت الجنة بمثابة الخروج من الحياة الفانية إلى الحياة الأبدية، فالموت في التصوف هو«موت إرادي قبل الموت يحدث بالخروج من الحياة الفانية لأن الحياة الباقية والأبدية هي حياة روحية معنوية »[40].

كما تعادل ثنائية الموت والحياة ثنائية الباطن والظاهر التي عبر عنها ابن عربي بقوله: «ثم لتعلم أن الحق وصف نفسه بأنه ظاهر وباطن، فأوجد العالم عالم غيب وشهادة لندرك الباطن بغيبنا والظاهر بشهادتنا »[41]، وقد تجسد هذا المفهوم في الرواية وفق رؤية صوفية تتركز على فكرة الظهور والغياب، إذ جعل الكاتب عتبة الولوج إلى عالم الرواية مقطعا يوضح بشكل مباشر هذه الفكرة قائلا: «لتمام الظهور .. لا بد من غياب »[42]، بمعنى أن الموت هو مرحلة ثانية من مراحل البحث عن العالم الآخر.

4- الخلود: استولت قضية الخلود على اهتمام الإنسان منذ أقدم الحضارات (الحضارة المصرية)، وهو بمثابة رمز يرنو إلى خيالات العالم الآخر، فبين النزل (الإقامة المؤقتة) وبين المدينة (الحياة الخالدة) تتعالق صور الظهور والاختفاء ثم الحياة والموت، والمدينة في الرواية عبارة عن مكان تتوفر فيه كل شروط الإقامة الدائمة، وفي العالم الآخر تجسد الجنة الخلود في شقه الإيجابي، في حين تمثل النار الشق الثاني، وهو صورة تمثيلية لعملية الإقصاء إلى الخلاء المطلق التي تتم بين الحين والآخر لمن لا يستحقون الإقامة في المدينة، إذا فالخلود رمز جمع بين عالمين، ليتضح فيما بعد أن المدينة ما هي إلا الجنة التي وعد بها المتقون، هذا ما تؤكده أيضا رموز أخرى أدّت دور موجه الفعل السردي أو مرافقات المعنى التي تمثل عناصر استدلالية لا يمكن تجاهلها أو الاستغناء عنها.

ج- موجهات فعل الحكي:

1- النزل: يبدو النزل في الرواية محفزا للعبور إلى المدينة/العالم الآخر، فالإقامة فيه مؤقتة وهذا ما يدفع الكثير إلى البحث عن الخلود، مما يجعلنا نقع في مفارقة الأساس فيها التناقض بين الإقامة في النزل وما يقابلها من الخلود في المدينة.

تحول مفهوم النزل في الرواية؛ إذ لم يعد يعبر عن ذلك المكان العادي الذي يقيم به النزيل إثر رحلة أو زيارة، بل هو رمز للحياة الدنيا، إذ يحيل كل ما فيه إلى خصائص الحياة الدنيا فـ«النزل ما هو إلا محطة مؤقتة، عتبة مؤدية، نقطة عبور»[43]. «...ذلك أن معظم المقيمين يدركون أن بقاءهم مؤقت، محدود... »[44]. ترتبط الإقامة في المدينة بشروط أهمها الإعلان عن الأسماء والنداء على الذين حان دورهم من قبل الطرف المعني، و«غير

مسموح بالاقتراب منها إلا لأصحاب الأسماء المعلنة والتي يتم النداء عليها من الطرف الآخر، خطوة واحدة تعرض الوافد للمساءلة وخطر الإقصاء النهائي من دار الإقامة المؤقتة»[45].

تعرض الرواية صورة أخرى من صور التماثل بين النزل والحياة الدنيا؛ إذ يشير الراوي إلى أن هناك من يتعلق بالإقامة في النزل حتى أنه «إذا نودي عليه للعبور وجاءت البشارة بالإقامة رفض وأبدى تنازله عما جاء من أجله، لكن ما من قوة يمكن أن تبقيه (...) فالنزل مكان للإقامة المؤقتة فقط»[46]. وهذا ما يعكس حال الإنسان في الحياة الدنيا التي تؤول به في كثير من الأحيان إلى أن يولي ظهره عن اليوم الآخر، متناسيا حقيقة هذه الحياة وواجبه فيها وزوالها متمنيا دوام حاله فيها، ولكن هيهات «**كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ** »[47]. ولا بد من أن يغادر النزيل هذه الدار في زمن طال أمده أو قصر.

كما تشير الرواية إلى الكثير من النزلاء ممن لا يعرفون بوجود المدينة، ولا بشروط الإقامة، كحال الكثير ممن لا يؤمنون أو يجهلون وجود اليوم الآخر، أو يوم الحساب والجنة والنار، كما لا يُقرّون بشروط الحياة التي تمليها كل الأديان، وكل هؤلاء (أهل النزل/الدنيا) مهددون بالإقصاء من (المدينة/الجنة) إذا ما تجاهلوا هذه الشروط المعلنة من قبل الجهات المتخصصة إلى (الخلاء المطلق/ نار جهنم).

ومما تجدر الإشارة إليه في هذا المقام هو تجريد النزيل بعد أن ينادى على اسمه (أي الموت) من كل مال أو غذاء أو ثياب، يصطحب إلى المدينة منفردا لا يملك أي شيء، عاريا كما خلق أول مرة، «غير مسموح باصطحاب أي رأس مال عند صدور الإذن وعبور القنطرة، قبل المفارقة يتم تجريد المرء من كل ما لديه، لا يمكن أن يحمل معه حتى ثمرة من النخيل»[48]. يحال المرء بعد موته إلى القبر مجردا، هذا ما يعبر عنه الفكر الصوفي، إذ يقول ابن عربي: «وإذا دخله العارفون إنما يدخلون بأرواحهم لا بأجسامهم فيتركون هياكلهم في هذه الأرض الدنيا ويتجردون»[49].

إن كل مرافقات المعنى والدلائل والرموز التي يتوفر عليها النزل: من الإقامة المؤقتة، وشروط الإقامة واحتمال الإقصاء من المدينة، وانتظار صدور الإذن بالعبور، ثم الانشغال عن الدار الآخرة، والتجريد قبل الوصول إلى العالم الآخر، كل ذلك من شأنه أن يحيلنا إلى دلالة واحدة وهي (الحياة الدنيا) فهي الحياة التي يقضي فيها الإنسان وقتا غير معلوم ينتهي به إلى الانتقال إلى الحياة الأخرى لا محالة، فترة زمنية قد تصل إلى عقود، ولكنها تنتهي بعبور القنطرة التي تمثل الموت في أكثر تجلياتها، فيها يجرد الإنسان من كل متاع الدنيا، ثم ينتقل بعدها إلى مرحلة المساءلة أو الحساب حيث يتحدد مصيره، إما بدخول المدينة / الجنة التي وعد بها المتقون، وإما يطرد إلى الخلاء المطلق/نار جهنم، وفي هذا المستوى يتوجه فعل الحكي بوساطة النزل إلى الحياة الدنيا التي تتحدد بها إحداثيات هذا العالم، بخضوع حياة الإنسان إلى قوانين تتحكم فيها وتسيرها، فتعد بذلك إسقاطا للحياة التي نحياها ونخضع إلى قوانينها.

2- آدم وحواء: على الرغم من أن المكان كان قد استولى في الرواية على مساحة واسعة من السرد، إلا أن ذلك لم ينفِ دور الشخصيات التي كان لها هي الأخرى دور فعال في السير بأحداث الرواية إلى إنتاج الدلالة، ذلك أن وظيفة البنائين كانت بارزة في تشييد المباني والعمارات، كما حملت شخصيات الفراعنة بدورها بصمة التاريخ، بينما مثلت شخصيتا مشاهد المعنى والأنثى المعلمة بؤرة السرد في هذا الفصل من الرواية (النزل)، فهما يضطلعان بوظائف من شأنها أن تنتقل بنا إلى عالم الجنة من جديد، هذا العالم الذي يتوارى خلف أقنعة متعددة، منها ما تجسد في مجموع الأماكن والفضاءات والأزمنة، ومنها ما تجسد في هاتين الشخصيتين، فمشاهد المعنى

أو الملقب برائي الحقيقة، يقال إنه «ينتمي إلى موضع من الأرض يجري فيه نهر مقدس(...)هو أول من حدد الأشياء للقوم بأسمائها وهو من أطلق على الموضع نزل وعلى هناك مدينة، هكذا وقع التحديد واستقر الفتق هو من أرسى ظهور الوجود بالاسم»[50]. تمثل هذه القصة رمزا لقصة سيدنا آدم – عليه السلام– فهو أول رجل بعث فيه الله من روحه في هذا الوجود، به بدأت الحياة، وهو أول من علمه الله أسماء الموجودات، وهو أول من دخل الجنة، ثم أخرج منها بأمر من الله تعالى.

ولما كانت شخصية مشاهد المعنى موضوعة رئيسة في فصل "تزل" فقد كان حضور هذه الشخصية مرهونا بما تحمله من دلالة؛ فهورمز للإنسان الكامل بالمفهوم الصوفي، إذ «يتحول مشاهد المعنى إلى ضوء مكين يمكنه العبور والنفاذ »[51].. في هذا الوصف رابط قوي بين سيدنا آدم –عليه السلام– وبين مشاهد المعنى؛ فسيدنا آدم أول إنسان يصل إلى درجة الإنسان الكامل، ف «للإنسان الكامل مرادفات أخرى منها (آدم) و(العقل الأول) و(الحقيقة المحمدية)...إلخ، وهذا التعدد في الأسماء يعكس تعددا في الوظائف، فالإنسان الكامل برزخ، أو وسيط بين عالمي الأرض والسماء، الإنسان والله»[52]. حيث يمثل الضوء روح الله الكامنة فيه.

لم يكن حضور شخصية مشاهد المعنى عبثا فقد ارتبط حضوره في السرد بجملة من التحديدات الدلالية تظهر من خلال القيام بمقارنة بسيطة بين تلك الشخصية وشخصية سيدنا "آدم" –عليه السلام– كما كان تجليه في المدينة متعلقا بوجود الأنثى المعلمة، التي لعبت دورا مهما ساهم في التعالي بالسرد، وبروز الرؤية، بوساطة التعالق الوظيفي بين هاتين الشخصيتين؛ فقد حملت شخصية الأنثى المعلمة جملة من السمات التي تؤهلها إلى أن تمثل دور أمنا "حواء"، فهذه الأنثى «قدمت من المدينة ولم تأت من الخلاء»[53]، المكان الذي جاء منه سيدنا آدم، وقدومها من المدينة معناه تحديد الوجهة الحقيقية لهذه الأنثى وهي الجنة، وقد خلقت حواء من لدن آدم في الجنة ونزلت معه منها –الجنة– إلى الأرض التي جرت فيها من هذا المنظور الحياة الدنيا، إذا فقدوم حواء من لدن آدم، ثم نزولها معه من الجنة إلى الأرض بأمر من الله تعالى يحيلنا مباشرة إلى دلالة زوج آدم عليه السلام.

تتميز هذه الأنثى التي آثر الراوي أن تبقى مجهولة الهوية بسمات تميزها عن باقي بنات جنسها، فهي المعلمة الأولى لهن: «علمت الإناث ما لم يحطن به علما من قبل »[54]. «كما علمت الرجال والنساء متعة النكاح»[55]. فلولاها لما عرف الإنسان سنة الحياة وقوانينها ونظمها القائمة على بناء العلاقات المنتظمة بين الجنسين التي من شأنها أن تؤدي إلى التناسل والتكاثر، وذلك لما تحملة لفظة النكاح من معنى الخصوبة والإنجاب، هذا إضافة إلى كونها تمثل كما يشير الراوي منبع الحياة والوجود،«لم تكن أنثى، بل عقيدة وشعائر، لم تنته بفناء حضورها المادي، بل انتقلت من حول إلى حول ومن رصيد إلى رصيد»[56]. وهذا ما عبر عنه الصوفيون، فالمرأة في نظرهم «أصل الحب والسعادة، تنجب أبناء الحياة، فهي رمز للرحم الكونية، وباستخدام رمز المرأة يكون الصوفيون قد مزجوا بين المادي والروحي، وبين السماوي والأرضي »[57].

وقد ذهب الراوي إلى وجود حياة قبل ظهور هاتين الشخصيتين، فقد سبق وجودَ الإنسان مخلوقاتٌ من الجنّ عاثت في الأرض فسادا، وكانت تحيى حياة همجية لا تخضع إلى أي نظام. لقوله تعالى: «**وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ – والجَآنَّ خَلَقْنَاه مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُوم** »[58].

وما يؤكد ما ذهبنا إليه هو عنوان الفقرة أو النص الذي يشير فيه إلى قصة الأنثى وموقعها من السرد ووظيفتها في هذا الوجود ودورها فيه، الذي ورد كالتالي: "أنس الوجود"، وهذا يعني وجود حالة شعورية تضطلع إلى رفيق

يذهب عنه الوحشة، وقد لعبت الأنثى المعلمة هذا الدور (الأنيس)، كما احتلت "حواء" هذه المكانة قبل آلاف السنين.

استنادا إلى ما سبق نستنتج أن شخصيتي مشاهد المعنى والأنثى من الرموز التي تعتمل في الرواية، لإحالتهما إلى آدم وحواء، من شأنها أن تمثل إحدى أهم الروافد التي تؤدي بنا إلى حقل "الجنة".

3- دلالة المدينة

تمثل رواية "سفر البنيان" "لجمال الغيطاني" محاولة لوضع حدود جديدة للمستقبل؛ ذلك أن كتاباته كانت بمثابة رحلة خيالية ماثلة في ذهن كل إنسان يسعى إلى التغيير، فالمدينة عبارة عن الجنة أو الفردوس المفقود الذي يبحث عنه الإنسان الباحث عن الجمال والحقيقة، المدينة هي ذلك العالم الذي لجأ إليه كل من ذاق ألم الحياة في مجتمع تحكمه المادة، المدينة هي الحصن الذي يصد الفساد السياسي والاجتماعي للوطن العربي والعالم أجمع، المدينة هي أحجية إنسان عاش من أجل التغيير، وكان عالم التصوف السبيل الوحيد للرقي في سلم الإنسانية بمفهومها الصوفي، المدينة هي الملاذ الذي لجأ إليه الكاتب هربا من الألم والمعاناة الداخلية اللذين لم يفارقا إحساس الكاتب.

المدينة هي الصورة الواضحة لحياة مثالية خالية من الشرور، المدينة هي فضاء دلالي لتكوّن الإنسان الكامل بتعبير المتصوفة، فسبيل المريد أو السالك في هذه الحياة هو التخلص من كل ما يدنسها وتطهيرها من رذائل الحياة الدنيا، بغية الوصول إلى المعرفة الشاملة للكون، حيث يتم الاتحاد مع الذات الإلهية، فيبتعد بذلك عن الآثام والأرجاس، ومعنى ذلك أن "الغيطاني" أراد أن يتمثل معالم العالم الذي يعيشه العربي من أجل خلق عالم جديد، أن يعيش الإنسان جنته في الدنيا بدل أن يحلم بها، ويتمناها وتسكن جوارحه، الجنة هي المعادل الموضوعي للحياة السعيدة في كنف نظام ينادي بمبدأ العدالة والحرية التي افتقد إليها العربي في ظل هوس الصراعات على اختلافها التي استهدفت تحطيم الإنسان قبل أي شيء.

الجنة هي الحلم الذي يتطلع كل عربي (شرقي) إلى تحققه في أن يتحرّر من قيود السلطة التي تحاصره من كل جانب، هي الرؤية الاستشرافية لعالم جديد، بعيدا عن الشرور التي عاينها الكاتب عن كثب أثناء عمله بالمراسلة الصحفية، إضافة إلى مرجعيته الاشتراكية الرافضة لنظام "عبد الناصر" من جهة، وللنظام الرأسمالي الذي بات يمثّل تحدّيا يهدد إنسانية الإنسان في هذا الوجود.

خاتمة

نخلص – من خلال ما سبق – إلى أن ما قدمته الرواية من حقائق ورؤى ومسائل غيبية لم يبتعد عن الحياة التي نحياها، خاصة فيما يتعلق بالجانب الغيبي الذي يحتل مكانة عالية في حياتنا وتتشكل بها أفكارنا ومعتقداتنا، ساهمت الرواية في إماطة اللثام عن أهم إشكالية شغلت اهتمام الإنسان منذ أقدم العصور، وهي موضوعة اليوم الآخر، أو الحياة بعد الموت، أو البعث، والتي ظهرت في الرواية في شكل ثنائية(الموت/الحياة)، تجلى مفهوم الجنة في الرواية (فصل نزل) تحت اسم "مدينة"، ما يعني غياب المصطلح وظهور المفهوم وفق شكل فني أدبي تجسد في مجموعة من الموضوعات: الأسوار، الأبواب، الجسر (القنطرة)، النهر، الأشجار، الملائكة، المباهج، الخلود(البعث)، النزل/الإقامة المؤقتة، مشاهد المعنى والأنثى/آدم وحواء، الخلاء المطلق/النار. مثّل التجانس أو التجاور الدلالي بين المدينة/الجنة وفكرة البعث هاجس الكاتب منذ البداية، فكان ذلك بمثابة تطلع لحياة أفضل؛

ذلك أن موضوعة البعث تحتمل الحياة في العالم الآخر إما حياة سعيدة أو شقية، أما حضور موضوعة الجنة فيحدد المسار الذي حاول الكاتب أن يرسمه منذ البداية وهو السعادة والتسامح والخير.

الهوامش:

1- الغيطاني(جمال)، سفر البنيان، دار الهلال، مصر، 1997، ص 127.

2– يونس (وضحى)، القضايا النقدية في النثر الصوفي حتى القرن السابع الهجري، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ص 61.

3– المرجع نفسه، ص 78.

4– الرواية، ص 18.

5– الرواية، ص 227.

6– الرواية، ص 53.

7– القرآن الكريم، سورة الرحمن، الآية 46.

8– القرطبي (عبد الملك بن حبيب السلمي)، وصف الفردوس، تحقيق سعد كريم الدرعمى، دار ابن خلدون، مصر، ص 95.

9– ابن عربي، الفتوحات المكية، مجلد 1، ص 340.

10– الرواية ص 198.

11– الرواية، ص 177.

12– القرطبي، وصف الفردوس، ص 07.

13– الرواية، ص 156.

14– الرواية، ص 194.

15– القرطبي، وصف الفردوس، ص 11.

16– الرواية، ص 179.

17– القرطبي، وصف الفردوس، ص 42.

18– الرواية، ص 228.

19– القرآن الكريم، سورة الكوثر، الآية 01.

20– أحوال الميت، من نفخة الصور إلى الاستقرار في الجنة أو النار، سلسلة إحياء علوم الدين 3، تهذيب وتعليق: زهير شفيق الكبي، دار الفكر العربي، بيروت، ص 52.

21– الأشقر (عمر سليمان)، 5 اليوم الآخر، 3 الجنة والنار، دار النفائس، الأردن، 1991، ط 3، ص167.

22– الرواية، ص 202.

23– الأشقر (عمر سليمان)، 5 اليوم الآخر، ص 176.

24– المرجع نفسه، ص 177.

25– القرطبي، وصف الفردوس، ص 42.

26– الرواية، ص 184.

27– الرواية، ص 227.

28– الرواية، ص 235.

29– الرواية، ص 235.

30– القرطبي، وصف الفردوس، ص 34.

31– القرآن الكريم، سورة محمد، الآية 15.

32– الرواية ص 206.

33– الرواية ص 210.

34– الرواية ص 210.

35– القرآن الكريم، سورة عبس، الآية 34، 35، 36، 37.

36– الرواية ص 210.

37– الرواية ص 211.

38– يونس وضحى، القضايا النقدية في النثر الصوفي حتى القرن السابع الهجري، ص 77، 78.

39– المرجع نفسه، ص 80.

40– المرجع نفسه، ص 81.

41– ابن عربي، فصوص الحكم، تعليق: أبو العلاء عفيفي، دار الكتاب العربي، بيروت، ص 54.

42– الرواية، ص 05.

43– الرواية، ص 181.

44– الرواية، ص 188.

45– الرواية، ص 177.

46– الرواية، ص 180.

47– القرآن الكريم، سورة الرحمان، الآية 26.

48– الرواية، ص 212.

49– ابن عربي، الفتوحات المكية، مجلد 1، ص 113.

50– الرواية، ص 214.

51– الرواية، ص 217 أو218.

52– يونس وضحى، القضايا النقدية في النثر الصوفي حتى القرن السابع الهجري، ص 91.

53– الرواية، ص 219.

54– الرواية، ص 221.

55– الرواية، ص 219.

56– الرواية، ص 220.

57– يونس وضحى، القضايا النقدية في النثر الصوفي حتى القرن السابع الهجري، ص 113.

58– القرآن الكريم، سورة الحجر، الآية 26–27.